دراسة تحليلية لمعركة الزاب

(تجربة وعبرة)

الدكتورة : أمينة محمد علي بيطار*

* ليسانس من جامعة دمشق عام ١٩٦٩م.
- دبلوم الدراسات العليا من جامعة القاهرة عام ١٩٧٠م.
- ماجستير في الآداب - قسم التاريخ من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م.
- دكتوراه من الجامعة نفسها عام ١٩٧٥م.
- لها العديد من المؤلفات في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- تعمل الآن أستاذة في التاريخ الإسلامي في جامعة الملك سعود.

بعد أن أعلن العباسيون قيام دولتهم في الكوفة يوم الجمعة (١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ أكتوبر / تشرين الأول ٧٤٩م) ، وبايع أنصار الدعوة العباسية للخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) ، شَعَر مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٥ - ٧٥٠م) بضرورة خوض معركة حاسمة مع العباسيين للقضاء على هذه الدولة الناشئة التي ستطيح بعرشه ، وتقوّض أركان الدولة الأموية ، ولذلك فإنه اتخذ قراره بأن يدع كل المشكلات التي كان يواجهها ، وأن يعمل على تجهيز جيش كبير يستعين به في قتال أعدائه الجدد .

ومن المهم هنا أن نذكر بأن مروان بن محمد كان يعاني أثناء خلافته من عدة مشكلات، على رأسها ؛ فقدان وحدة البيت الأموي، إضافة إلى فقدان وحدة عرب الشام يمانيهم وقيسيهم . وقد بدأ ذلك قبل وصول مروان بن محمد إلى عرش الخلافة بسنة واحدة، إثر الثورة التي أطاحت بالوليد بن يزيد المعروف بالوليد الثاني (١٢٥ - ١٢٦هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤م) والتي اشترك فيها بعض رجالات البيت الأموي وسادات قبيلة كلب من العرب اليمانية .

ويعد مقتل الوليد نذيراً بانهيار الدولة الأموية ، لأنه قتل على أيدي رجالٍ من بني أمية أنفسهم . فالوليد بن يزيد لم يكن خارجاً عن الخلافة أو مدسوساً من قبل متآمرين على السلطان ، بل هو خليفة أموي له بيعة

في الأعناق ، لذا فإن مقتله كان نقطة البدء في تحدي فكرة الشرعية في العصر الأموي ، ومسماراً ضخماً في نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته (١) .

في الفترة التي حدثت فيها هذه الثورة تطلع مروان بن محمد إلى عرش الخلافة ، ولو كان تحقيق ذلك سيضطره إلى استخدام القوة المسلحة في وجه كل من يقف في طريقه . فادعى بأنه يطالب بدم الخليفة الوليد بن يزيد المقتول . فوقع من أجل ذلك في عداء مع الأمويين أعداء الوليد ، ومع الحزب اليماني في الشام ، لأنهم هم الذين قاموا بالثورة ضد الوليد ، فقاتلهم مروان وانتصر عليهم ، وتمكن من تحقيق هدفه ، واعتلى عرش الخلافة سنة (١٢٧هـ / ٧٤٥م) . ولكي يكون بين أنصاره، وبعيداً عن أعدائه في وسط بلاد الشام وجنوبها ، عمل على نقل عاصمته من دمشق إلى حران ، ونقل الدواوين إليها ، وكذلك بيت المال ، معتمداً في ذلك على دعم عرب الجزيرة الفراتية ، الذين كان جلهم من القيسية (٢) .

كانت ظروف مروان بن محمد الداخلية سيئة جداً حين فوجئ بإعلان الخلافة العباسية، ومع ذلك فإنه شكل جيشاً كبيراً مؤلفاً من مئة وعشرين ألفاً من رجاله من قبائل العرب القيسية (عرب الشمال) ، وكان مضطراً إلى الاعتماد على القيسية فقط بسبب ظروف وصوله إلى العرش (٣) . وقد يكون تعداد هذا الجيش مبالغاً فيه لإبراز قيمة نصر العباسيين على الأمويين ، لأن المصادر التي أخذ عنها مكتوبة في العصر

(١) العاقل ، نبيه . **دراسات في تاريخ بني أمية** .- دمشق : جامعة دمشق ، ١٩٧٥ - ١٩٧٦م ، ص٢٩٨ .

(٢) بيطار ، أمينة . **دراسات في تاريخ الخلافة العباسية** (١٣٢ - ٢٣٢هـ) .- الرياض : دار القلم والكتاب ، ١٤٢٠هـ ، ص٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) الأزدي ، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ) . **تاريخ الموصل** ؛ تح علي حبيبة .- القاهرة : طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٦٧م ، ص١٣٣ .

العباسي ، أو أنها نقلت عن مصادر عباسية . هذا إضافة إلى أن جيش مروان بن محمد اقتصر على عرب شمال الشام والجزيرة الفراتية ، ولا يمكن له تجنيد مثل هذا العدد الضخم من هذ المنطقة المحدودة .

سار مروان بن محمد بجيشه من مدينة حران في الجزيرة الفراتية باتجاه الجنوب الشرقي ، حتى نزل على نهر الزاب الأعلى ، ذلك النهر الذي يرفد نهر دجلة جنوب مدينة الموصل حيث اتخذ معسكره هناك [(١)] .

اتصف معسكر مروان بن محمد عند الزاب بالحصانة الطبيعية ، إذ كان تحيط به المياه من جهتين . ولزيادة الحصانة فإنه حفر خندقاً من الجهة الثالثة[(٢)] ، وبذلك فإن جنوده أصبحوا في حماية تامة . ولم يكتف بذلك ، بل إنه اتخذ كل الاستعدادات اللازمة لقتال جيش أعدائه من سلاح وأموال وعدة وغير ذلك[(٣)] .

حين علم العباسيون بتحركات الخليفة الأموي مروان بن محمد واتخاذه معسكراً على نهر الزاب. بدأ الخليفة أبو العباس السفاح يجهز جيشاً ، فتمكن من جمع عشرين ألف جندي ، جعل على قيادتهم عمه عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس ، وذلك ليوازي قيادة جيش الأمويين [(٤)] .

نظم عبدالله بن علي جيشه ، وأخذ مواقع في مواجهة خصمه ، ولكن جيش

---

(١) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) . **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ؛ تح محمد محيى الدين عبدالحميد ·- القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص٢٦٠ ؛ مؤلف مجهول : **العيون والحدائق** ، ج٣، ص١٩٨ ؛ حتي ، فيليب . **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ، ج٢·- بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٩م ، ص١٥٤ .

(٢) انظر الخريطة المرافقة .

(٣) المسعودي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٦ .

(٤) الأزدي : المصدر السابق ، ص١٣٣ ؛ بيطار : المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦.

الأمويين لم يبادر جيش العباسيين القتال ، مما دفع بعبدالله بن علي أن يفكر ببدء الهجوم، ولذلك فإنه سأل عن مخاضة على نهر الزاب ليتقدم جنده لقتال الأمويين عن طريقها ، فأرشده أصحاب الخبرة إلى طلبه [١] .

أرسل عبدالله بن علي عن طريق هذه المخاضة في يوم الجمعة (٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ / ١٧ يناير / كانون الثاني سنة ٧٥٠م) أحد قادته وهو عيينة بن موسى في خمسة آلاف . وحين انتهى إلى معسكر مروان نشب القتال بين الطرفين حتى أمسوا ، ثم توقف القتال ليلاً ، وعاد عيينة فعبر المخاضة إلى معسكره .. ومن الغريب أن مروان بن محمد لم يعمل على قطع خط الرجعة على عيينة وجنده ، فكأن المفاجأة قد أذهلته .. وهكذا فإن الجولة الأولى كانت لصالح العباسيين [٢] .. وكان بإمكان مروان بن محمد وجنده تفقد المخاضات وحراستها ، وقطع خط الرجعة على من يستخدمها في العبور ، وقد يكون مروان قد فوجئ بهذا الهجوم الذي لم يكن يحسب له حساباً .

شجع هذا النصر في الجولة الأولى عبدالله بن علي ، فأرسل في اليوم التالي المخارق بن غفار في أربعة آلاف من الجند ، ولما ابتعد عن معسكر قائده خمسة أميال واجهه الوليد بن معاوية بقسم من الجيش الأموي ، فانهزم أصحاب المخارق ، وقتل عدد منهم وأسر عدد آخر [٣] . وهكذا فإن الجولة الثانية كانت لصالح الأمويين . وقد يكون السبب في هذه الهزيمة التي مني بها المخارق، تنبه الأمويين ، واستعدادهم

---

(١) الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) . **تاريخ الرسل والملوك** ؛ تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج٧ -- ط٢-- مصر : دار المعارف ، ١٩٦٥م ، ص٤٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص٤٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص٤٣٣ .

لمقاومة جيوش العباسيين ، ووقوفهم على الطريق الذي سلكه عيينة في اليوم السابق، فعملوا على مراقبته والوقوف في وجه من يحاول اختراقه .

علم عبدالله بن علي بما حدث لمخارق ومن معه ، فقرر أن لا يدع مجالاً لجيش الأمويين في استغلال هذا النصر ، إضافة إلى أنه أراد أن يتحرك بجيشه قبل وصول نبأ هذه الهزيمة إلى جنده خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى تثبيط هممهم ، فيعتريهم الخوف من جند الأمويين . ولذلك فإنه استخلف على معسكره محمد بن صول ، وقاد الجيش بنفسه لقتال جيش الأمويين (١) .

خاف مروان بن محمد من تحركات عبدالله بن علي على الرغم من الموقع الحصين الآمن الذي يعسكر فيه ، وكثرة عدد جنده الذين يعدون أضعاف عدد جند خصمه . فأرسل إلى عبدالله بن علي يسأله الموادعة أياماً ، ولكن عبدالله رفض ذلك، واجتاز المخاضة إلى حيث معسكر الأمويين ، وأمر جنده بالنزول عن خيولهم ليبدأ القتال بالسلاح الأبيض ، ذلك لأن هذا النوع من القتال يحتاج إلى حماسة واندفاع من قبل الجند ، تمكن عبدالله من دَبِّه في صفوف جنده ، ولم يتمكن مروان ابن محمد من أن يبثه في نفوس جنده . فقد أخذ عبدالله بن علي يذكر جنده من الخراسانيين بأفعال الأمويين ، كما نادى بثارات ابن أخيه الإمام إبراهيم بن محمد الذي قبض عليه مروان محمد سنة (١٣٠هـ / ٧٤٧م) وأودعه سجن حران ، ثم توفي فيه في السنة نفسها . كما نادى بشعارات أخرى تتناسب مع نوعية جنده وانتماءاتهم فدب الحماس بينهم (٢) .

كان جند العباسيين في غاية الحماسة والاندفاع لمواجهة جند الأمويين في

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص٤٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص٤٣٣ .

الوقت الذي كان فيه الأخيرون متفرقين متواكلين . فكان مروان بن محمد كلما طلب من قبيلة التقدم للقتال أحالته إلى غيرها . فقد طلب من السكاسك أن يحملوا على العباسيين ، فطلبوا منه أن يبدأ ببني عامر ، ولما طلب من السكون أن يحملوا على العباسيين ، أحالوه على غطفان ، وهكذا . ولما طلب من صاحب شرطته أن ينزل ، رفض قائلاً : «لا والله ما كنت لأجعل نفسي عرضاً» (١) .

وهكذا كان مروان بن محمد مغلوباً على أمره ، وقد فقد طاعة جنده .

ولا بد من وجود أسباب أدت إلى عدم طاعة جند مروان له ، وقد يكون أحدها أن مروان بن محمد خاض مع جنده من القيسية عدة معارك ، منها معارك ضد أبناء عمومته الأمويين ، أمثال إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك ، وأبناء هشام بن عبدالملك وغيرهم من غرب اليمن الذين ثاروا في الشام ضده(٢) . هذا إضافة إلى الحركة التي قام بها عبدالله ابن معاوية في العراق ، ومن ثم في خراسان (٣) . وثورات الخوارج التي نشبت في الجزيرة الفراتية وفي العراق ، والجزيرة العربية ، والتي عمل مروان على القضاء عليها بكفاية ومقدرة(٤) ، مما أتعب جنده وأرهقهم .

وحين تمكن مروان من القضاء على هذه الحركات ، كان مشرق الخلافة الإسلامية يشتعل ناراً . فقد قامت حركة تطالب بإصلاح الأوضاع الاجتماعية ، وهي حركة الحارث بن سريح ، كما اندلعت ثورات قبلية قام بها جديع بن علي الكرماني ،

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص٤٣٣ .

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) . **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، ج٣ - القاهرة: مطبعة بولاق ، ١٢٨٤هـ ، ص١١٣ - ١١٤.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١١٥ .

(٤) الطبري : المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٣٣٤ - ٣٤٧ ، ٣٤٨، ٣٤٩ ، ٣٥٣، ٣٧٤ - ٣٧٦ ؛ ابن خلدون: المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٦٤ وما بعدها حتي ص١٦٩.

وابنه من بعده[1]. هذا إضافة إلى أن تخلي العرب اليمانية في الشام عن نصرة مروان ابن محمد ، والذين يشكلون غالبية سكان وسط بلاد الشام وجنوبها كان له أثره في هزيمة مروان بن محمد في معركة الزاب[2].

نشبت معارك بين جند الأمويين وجند العباسيين استمرت حتى صبيحة يوم السبت (١١ جمادى الآخرة ١٣٢هـ / ٢٧ يناير / كانون الثاني ٧٥٠م) ، انتهت بفوز جيش العباسيين على الأمويين فوزاً حاسماً . وكانت هذه المعركة بداية نهاية الأمويين، ونصراً مؤزراً للعباسيين ، أخذوا يجنون أُكُلَه منذ أن فر مروان بن محمد وجنده من المعركة . فقد أراد أن يدخل إلى مدينة الموصل على نهر دجلة ، ولكنها لم تفتح له أبوابها ، ذلك لأن أهاليها استبشروا بنجاح العباسيين ، ورجوا الخير في خلافتهم بعد أن سئموا كثرة الاضطرابات في البلاد ، وضعف الأمويين عن السيطرة عليها[3] .

ولما فر مروان بن محمد إلى الشام لم يتمكن من تجنيد جند جديد من أهلها ، وذلك بسبب تفرق القيسية بعد هزيمة الزاب ، ولموقف اليمانية المعادي له[4] . وأصبح الأمر أخطر من ذلك ؛ إذ إنهم أخذوا ينتقمون لموقفه منهم بالاعتداء على مؤخرة جيشه كلما مر في منطقة من مناطقهم . فقد أوقعت طيء وتنوخ في قنسرين بساقته، واقتطعوا مؤخرة عسكره ونهبوها انتقاماً لقتله جماعة منهم[5] . وكذلك وثب

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٣٠٩ - ٣١٠ ، ٣٣٠ - ٣٣٤ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١١٥ - ١١٧ .

(٢) بيطار : المرجع السابق ، ص٥٨ .

(٣) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ؛ بيطار : المرجع السابق ، ص٥٨.

(٤) ابن قتيبة الدينوري ، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) . **الإمامة والسياسة** ، ج٢ -- القاهرة : مطبعة النيل ، ١٩٠٤م ، ص١٤ .

(٥) الأزدي : المصدر السابق ، ص١٢٦ ؛ بيتشوف الجرماني.: **تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء**.- بيروت ، ١٨٨٠م ، ص١٥ .

عليه يمانيو حمص ، والمذحجيون في الأردن ، كما وثب عليه في فلسطين الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع(1). فلم يجد بداً من الالتجاء إلى مصر حيث قتل هناك في قرية بوصير من كورة أشمون من الصعيد في (٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ / ٢٨ يوليه / تموز ٧٥٠م) .

وفي هذه المعركة الكثير من الدروس والعبر التي منها :

١ - يتوجب على أولي الأمر حسن اختيار القيادة العسكرية ؛ فاختيار القائد الكفء من أهم ما يتوجب عمله من قبل رئيس الأمة ، ولا أعني بالكفء هنا المهارة العسكرية والمقدرة القتالية فقط التي كان يتحلى بهما مروان بن محمد حسب ما ذكرت كتب التاريخ، بل أعني اختيار القائد الذي يكون له مكانته واحترامه بين جنده، إضافة إلى أنه يجب أن يتحلى بالصرامة والمقدرة التي تمكنه من فرض تعليماته وأوامره وتطبيقها. لأن الحرب لا تحتمل المناقشة في الآراء ، وعلى القائد إصدار الأوامر ، وعلى الجند الطاعة ، لأنه على رأي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه «لا رأيَ لِمَنْ لا يطاع» .

فعدم ثقة الجند بقائدهم وتصرفاته يجعلهم لا يحترمونه الاحترام الكافي الذي يدعو إلى الطاعة وتنفيذ الأوامر ، وهي أمور ضرورية لحسن سير النظام . ولنا فيما حدث لمروان ابن محمد في معركة الزاب خير دليل على ذلك . فقادته وجنده لم يعودوا يثقون به ولا بتصرفاته، والرد الذي جابهه فيه رئيس شرطته حين أمره بالنزول للقتال وهدده إن لم يفعل خير دليل على ذلك ، إذ إنه أجابه قائلاً : بأنه يتمنى أن يستطيع مروان (الخليفة) تنفيذ تهديداته (2) .

٢ - يجب على الأمة ، إذا أرادت خوض معركة أن توحد قلوب شعبها حول

(١) المسعودي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٦٥ .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، ج٧، ص٤٣٤ .

رئيس الدولة وقائد الجيش ليكون الشعب كله يداً واحدة على سواهم ، يسيرون وراء قائدهم. ويجب أن لا تقاتل الأمة بقسم من قوتها، ذلك لأن هذا القسم قد يكون غير كافٍ لتحقيق النصر. بل تجهز كامل قوتها ، وتستعين بكل قسم في الوقت المناسب . فاعتماد مروان بن محمد على القيسية فقط دون اليمانية ، أفقده جزءاً من الجند ، ولو كانوا معه لساعدوه في ساعة العسرة ، ولكن انحرافه عنهم جعلهم ينخرطون في صفوف أعدائه مما ساعد على هزيمته.

٣ - ليست الإغراءات المادية فعالة دائماً في المعارك العسكرية ، واستخدامها لا يحقق النصر بالضرورة ، خاصة إذا استخدمت بطريقة غير فعالة . فقد أراد مروان بن محمد تحميس جنده على القتال ، فوضع أكياس الذهب في مؤخرة جيشه، وأعلم جنده أنه لهم إذا قاتلوا عدوهم ، وانتصروا عليه ، وذلك لتدب الحماسة فيهم للقتال ، ظناً منه أن الذهب يكفي لتحقيق النصر وتحميس الجند ، ولكنهم تركوا القتال ومالوا إلى الأموال . فأرسل حراس المال إلى مروان بن محمد قائلين له : «إن الناس قد مالوا على هذا المال ، ولا نأمنهم أن يذهبوا به» . فأرسل إلى ابنه عبدالله أنْ «سر في أصحابك إلى مؤخرة عسكرك ، فاقتل من أخذ من ذلك المال وامنعهم» . وكان عبدالله صاحب راية الجيش الأموي ، وقد أثر فيه هذا الوضع المأسوي ، وخيانة جندهم ، وتركهم القتال والانصراف إلى الأموال ، فتراجع إلى الخلف برايته المرفوعة . ولما رأى الجند تراجع الراية ، ظنوا أن الهزيمة قد وقعت ، فتبعوه منهزمين[1] . وكان لذلك أثره الكبير فيما حدث من هزيمة الأمويين.

وهكذا فإن الإغراءات المادية لم تؤد إلى النجاح في المعركة ، بل ساعدت على الإخفاق فيها ، وإن كان لا بد من المكافأة ، فلتكن بعد أن يحقق الجند النصر ويؤدوا واجبهم ، كما فعل الخليفة أبو العباس الذي قرر بعد الانتصار في المعركة لكل من

(١) الطبري : المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٤٣٤ -٤٣٥ .

شهدها بخمسمئة خمسمئة [1] ، ورفع أرزاقهم إلى ثمانين [1] .

٤ – يجب أن يكون الاحترام تاماً من قبل الجند لقائدهم ، وأن ينفذوا أوامر قيادتهم أثناء المعركة دون الاعتراض عليها . أي يجب تطبيق المبدأ العسكري «نفّذ ثم اعترض» . لأنه من المتعارف عليه ، أنه قبل البدء بخوض أي معركة عسكرية ، تجتمع القيادات ، وتتخذ خطة تتفق مع الزمان والمكان ومقدرة العدو ، ونوعية السلاح . إضافة إلى خطط بديلة أخرى ، بحيث إذا أخفقت الخطة الأساسية ، طبقت الخطة التي تليها ، وهكذا . وهذا من شأن القادة، وليس من شأن الجند .. ويعد الجندي الذي لا ينفذ أوامر قائده أثناء المعركة خائناً لوطنه وقائده وتجب معاقبته . ولم يتمكن مروان بن محمد من تنفيذ أوامره، ولم يحصل على طاعة جنده.

٥ – من الضروري قبل خوض أي معركة دراسة المكان الذي يتوجب على القيادة جر العدو إليه ، ويجب أن يكون المكان حصيناً ، وأن تتم الاستفادة من الحصانة بتقوية ودعم كل الأماكن التي ينفذ منها العدو ، كالممرات ، والسواحل ، والمخاضات وغيرها ، إضافة إلى المناطق الحساسة . هذا إضافة إلى أنه يتوجب على قادة الأمة تأمين كل ما يحتاجه الجيش من عدة وعتاد وتموين . وكذلك تأمين سكان البلاد ، لأنهم يشكلون خط الدفاع الثاني ، وذلك بتأمين احتياجاتهم التموينية كافة لفترة أطول مما يتوقع من طول المعركة . ويبدو لي مما حدث في معركة الزاب ، بأن مروان ابن محمد ، على الرغم من أنه عسكر في منطقة حصينة اختارها بدقة ، إلا أنه لم يعمل على حراسة المخاضات ومراقبتها وحمايتها. مما مكن جيش العباسيين من عبورها إليه وقتاله وهزيمة جيشه . فأي ثغرة يتركها الجيش دون حماية تكون سبباً من أسباب الهزيمة . ولنا في تاريخنا الحديث عبرة . فالثغرة التي تركها الجيش المصري بين فرق جيشه في حرب (٦ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣م/ ١٠ رمضان

(١) ويغلب أن يكون المبلغ بالدراهم أي خمسمئة درهم .

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤٣٤ – ٤٣٥ .

١٣٩٣هـ) كانت أحد الأسباب التي أدت إلى استرداد إسرائيل لمكانتها في هذه المعركة، بعد أن كانت هزيمتها قاسية في هذه الحرب .

٦ - على قائد الأمة ورئيس دولتها ، وقائدها العسكري تقدير قوة العدو ، وعدم الاستهانة به ، فإن دخول معركة دون معرفة قوة العدو ، ومجابهة سلاحه بسلاح مماثل يؤدي إلى الفشل والهزيمة .

٧ - علي القيادة العسكرية أن تكثر من خداع العدو ونشر العيون (الجواسيس) في كل مكان لتتمكن من التعرف على خطط العدو وأسلحته ، ولتَطَّلع على مدى استعداده. فقد كان رسول الله ﷺ يخذل الأعداء ، ويبدو ذلك حين طلب نعيم بن مسعود الغطفاني من رسول الله ﷺ أن يأمره بعمل ما شاء ، وذلك أثناء معركة الخندق التي نشبت سنة (٥هـ / ٦٢٦م) . وكان نعيم قد أسلم وقومه لا يعلمون ، وكذلك اليهود الذين كانوا في المدينة . فقال له رسول الله : «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة» (١) .

أما مروان بن محمد فلم ينشر العيون في معركة الزاب - حسب ما اتضح لي من مجريات المعركة - ولو فعل لعلم باجتياز جند العباسيين - في الجولة الأولى - للمخاضة، ولتمكن من سدها في وجههم . ولما تمكن العباسيون من هزيمة جند الأمويين الذين كان التعب قد حل بهم ، فتقاعسوا ، ولو خدع مروان عدوه، واستعان بالعيون لكان وضعه أفضل.

٨ - على القيادة استخدام عنصر المباغتة للعدو ، لأن المباغتة تربكه وتشتت شمل جيشه ، وقد تفشل خططه ، والهجوم خير من الدفاع ، فقد هاجم عبدالله بن علي قائد العباسيين فانتصر ، وأي أمة تُغزى في عقر دارها ، تستباح وتنتهك أعراضها .

٩ - إن وحدة الصف والمساواة بين الجند من جهة ، وأصحاب الرتب العسكرية الواحدة من جهة أخرى ضروري في كل وقت ، وفي أثناء المعارك العسكرية ، لأن شعور الجند والقادة بالمساواة يدفعهم إلى بذل طاقتهم ، ويندفعون لخدمة وطنهم ،

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٧٨.

وأن تفضيل بعضهم على بعض دون أن يكون للمفضَّل ما يتميز به ، يؤدي إلى بعث الغَيْرَة والحسد في صفوف الجند ، ويجعل الذين يشعرون بغبن في حقوقهم يتراخون عن أداء مهماتهم . وعلينا أن نجعل نصب أعيننا أن العدل أساس الملك .

هذه عبرة من معركة من معارك المسلمين ، والعبر كثيرة ، ونحن الآن بحاجة إلى النظر بتؤدة إلى تاريخنا والاستفادةٍ من دروسه وعبره . خصوصاً ونحن نواجه عدواً في غاية الشراسة لا يحترم مبدأ ولا أمانة له . وكل همه السطو على أملاك الآخرين وأراضيهم، مهما كانت الوسيلة التي يتبعها .

